الفصل الرابع

انفراد محمد علي بالحكم

يدل منطق الحوادث على أن نية محمد علي في الانفراد بالحكم قد بدأت تتملكه - كما ألمحنا إلى ذلك- بعد عودته من الإسكندرية عقب جلاء الإنجليز عن البلاد؛ وذلك أن مركزه قد توطد إذ تغلب على دسائس الباب العالي أولًا، ثم هزم الحملة الإنجليزية ثانيًا، وبسط نفوذه وسلطانه على بلاد خارجة عن نطاق حكمه كالإسكندرية التي كان الباب العالي يعتبرها تحت مطلق سلطته، فانتصار الجيش المصري على الإنجليز، واستخلاص البلاد من قبضة دولة قوية البطش عزيزة الجانب، جعل محمد علي ينزع إلى الانفراد بحكومة البلاد ويستأثر بها بلا معارض ولا منازع، وأخذ يعمل على ذلك تدريجًا، مستعينًا بما أوتي من الدهاء وسعة الحيلة.

وإذا تأملت في مجرى الحوادث عقب عودته إلى القاهرة تجد أنه قد أخذ فعلًا من ذلك الحين يعمل على تحقيق هذا الغرض؛ ذلك أنه اغتنم الفرصة في ثورة الجنود الأرناءود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة وإخلالهم بالنظام كعادتهم، فاعتزم الانتقال من سرايه بالأزبكية إلى قلعة المقطم، واتخاذها مقرًّا له، ومعنى انتقاله إلى القلعة عزمه على أن يحكم البلاد بالقوة؛ لأنك إذا رجعت بذاكرتك إلى نحو أربع سنوات مضت قبل وقوع هذه الحوادث تجد أن خورشد باشا حينما انتقل من سرايه بالأزبكية إلى القلعة[1] كان معتزمًا أن يحكم البلاد بالقوة، دون أن يعبأ برأي شيوخها وزعمائها ومطالب جماهيرها.

والواقع أن سكنى ولي الأمر في الأزبكية -أي في قلب العاصمة- يجعله أميل إلى الإصغاء لمطالب الشعب إذا هاجت خواطره؛ لأن الأزبكية كانت الميدان الذي تحتشد

(١) انظر: الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٣٦١، الطبعة الأولى.

فيه الجموع إذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج، فإذا ما سكنها ولي الأمر كان أقرب إلى رؤية مظاهرات الشعب وأدنى للاستماع إلى صيحاته ومطالبه.

أمَّا إذا استقر في القلعة، فكأنه يريد أن يمتنع في قمة الجبل، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد، ويصم أذنيه عن سماع صيحات الجماهير، وينظر إلى القاهرة كما ينظر النسر المحلق في السماء إلى فريسته على الأرض.

ولا يذهبنَّ عنك أن القلعة تربض على ذروة المقطم كما يربض الأسد في عرينه، وهي بأبراجها ومدافعها تُشرف على القاهرة وتتسلط عليها، فكأنما بناها صلاح الدين الأيوبي في ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلًا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها، ويكفيك أن تصعد يومًا إلى القلعة، وتمد نظرك إلى ما يتناوله الأفق، لتتضاءل القاهرة أمامك، إذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها، وميادينها، وقصورها، ومبانيها، وأشجارها، وحدائقها، كرقعة صغيرة تكاد تكون في قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامته، ولا تكاد إذ ترى أشباح الناس تتحرك في شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين في مختلف نواحيها القريبة والبعيدة، فالحاكم المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره، صامته لا يسمع لها صوتًا، جامدة لا يحس لها ركْزًا، ويرى نفسه في ذلك العلو الشاهق، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة أفواهها على المدينة، لا جرم أن تعتريه وساوس السلطة المطلقة، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه. فمحمد علي باشا قد انتقل إلى القلعة واتخذها معقلًا له حينما قامت في المدينة فتنة الجند الأرناءود، ومن يومئذ وهو معتزم أن يستأثر بالحكم لا ينازعه فيه منازع، فبعد أن أخمد فتنة الجند اتجهت عزيمته إلى التخلص من الزعامة الشعبية، فتم له ما أراد كما رأيت في الفصل السابق، ثم صحت عزيمته على التخلص من خصومه المماليك، فإنهم بالرغم

من تقليم أظافرهم كانوا لا يفتأون يتحينون الفرص لمناوأته ومنازعته الحكم والسلطان.

موقف محمد علي إزاء المماليك

كان عدد المماليك في ذلك الحين يبلغ (٢٥٠٠) من المقاتلة كما قدرهم المسيو «مانجان»[١]، وقد استعان محمد علي باشا على رؤسائهم منذ سنة (١٨٠٧م) بالحيلة، فابتدأ باستمالة شاهين بك الألفي خليفة محمد بك الألفي، وما زال يعرض له المودة والصفاء حتى اجتذبه إلى القاهرة ووافقه على أن يقيم بالجيزة ويكون له إيراد إقليم الفيوم وثلاثين قرية في إقليم البهنسا، وعشر قرى في الجيزة، وأطلق له التصرف في ذلك كله التزامًا وكشوفية[٢]، وضم له كشوفية البحيرة بتمامها إلى الإسكندرية، وكتب له الحجة بذلك.

فارتضى شاهين بك بهذا الصلح، وطابت له نفسه، وجاء القاهرة لزيارة محمد علي باشا؛ فأكرم مثواه، ودعاه إلى مأدبة عند ابنه طوسون. ثم سكن شاهين بك بالقصر الذي أعد له بالجيزة (شوال سنة ١٢٢٢هـ، ديسمبر سنة ١٨٠٧م)، وضرب صفحًا عن عيشة الكفاح والقتال، وحذا حذوه بعض الأمراء المماليك، فبذلوا الطاعة لمحمد علي باشا، وأرسل في أوائل سنة ١٨٠٨م (ذي القعدة سنة ١٢٢٢هـ) إلى زملائه المماليك في الصعيد يرغبهم في الإذعان والولاء لمحمد علي.

كان لدعوة شاهين بك أثرها في كسر حدة المماليك، فوقفت حركات القتال في الصعيد، وهدأت الحالة هدوءًا نسبيًّا، ويرجع سبب هذا الهدوء إلى ما أصاب المماليك من الضعف، وإلى اليأس الذي تسرب إلى نفوس زعمائهم؛ فإن إبراهيم بك الكبير قد أضعفته الشيخوخة، فصار أقرب إلى الراحة والسكون بعد ما هدَّت السنون من نشاطه وقوته، وكذلك عثمان بك حسن، وهذان هما كبيرا المماليك المعترف لهما

(١) في كتابه «تاريخ مصر في عهد محمد علي» الجزء الأول.

(٢) أي يتولى حكم تلك البلاد ويستولي على إيراد أطيانها بعد أداء الميرى.

بالزعامة بعد موت الألفي والبرديسي. على أنهما مع ما تولاهما من الضعف واليأس ظلا على عهدهما القديم من كراهية محمد علي باشا وعدم الثقة في مقاصده حيال المماليك. أمَّا شاهين بك المرادي (خليفة البرديسي) فلم يكن له نفوذ بجانب إبراهيم بك وعثمان بك حسن.

كان محمد علي باشا يعلم نفسية ذينك الزعيمين، ويعرف أن التجارب جعلتهما لا يطمئنان إليه، ولا يثقان به، فتخطاهما وصرف مساعيه إلى استمالة صغار البكوات والكشاف من أتباعهما، فانتهز فرصة الهدوء النسبي الذي ساد صفوف المماليك وجعل يوفد رسله إليهم يدعوهم إلى الإخلاد للطاعة على أن يرتب لهم رواتب تقوم بأودهم في القاهرة، وانتهى بهذه الوسيلة إلى فصم عُرى المماليك واجتذاب بعضهم إلى العاصمة.

ولما مات شاهين بك المرادي خليفة البرديسي (مايو سنة ١٨٠٨م) أراد محمد علي أن يظهر سطوته وأنه ولي الأمر، فعيَّن سليم بك المحرمجي رئيسًا للمماليك المرادية، خلفًا لشاهين بك، وخلع في الوقت نفسه على مرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير خلعة حاكم جرجا، فوضع المماليك بهذا التعيين المزدوج أمام الأمر الواقع، وجمع في الوقت نفسه بين إعلان سلطته عليهم واجتذاب إبراهيم بك بتعيين ابنه حاكمًا لجرجا، ولم يعهد المماليك أن يتحكم فيهم الولاة الأتراك السابقون ويتدخلوا في شئونهم إلى هذا الحد الذي وصل إليه محمد علي؛ فإنهم كانوا محتفظين باستقلالهم في اختيار زعمائهم، وكان الصعيد تحت مطلق تصرفهم.

اجتمع رؤساء المماليك، وتشاوروا فيما يكون موقفهم حيال هذا التدخل، وبعد الأخذ والرد استقر رأيهم على قبول الأمر الواقع.

لكنهم لم يؤدوا ما على البلاد التي تحت سلطتهم من الأموال الأميرية، نقدًا أو غلة، فتهددهم محمد علي بتجريد حملة عليهم إذا لم يؤدوها، فتوسط شاهين بك الألفي بين الفريقين، واتفقوا على أن يؤدوا ثلث ما عليهم من غلال الحكومة، وقدر ذلك

سبعة آلاف ومائة ألف أردب (مارس سنة ١٨٠٩م)، ولكنهم لم يفوا بها، فجرد عليهم في سبتمبر سنة (١٨٠٩م) جيشًا لإخضاعهم واستخلاص الصعيد من أيديهم.

على أنَّ المماليك لم يفكروا في مقاومته، فانسحبوا إلى الجبال القريبة من جرجا وأسيوط. فرأى محمد علي أن الفرصة سانحة ليتولى حكم الوجه القبلي، فسار في شهر أكتوبر من القاهرة في جيش يبلغ ستة آلاف مقاتل، فلم يكد يبلغ أسيوط حتى بادر المماليك إلى طلب الصلح، فاشترط عليهم محمد علي أن يرحلوا عن الوجه القبلي، ويقيموا في القاهرة، على أن يعطيهم بعض الجهات يستغلونها ويدفعون أموالها والضرائب التي تفرض عليه. وهذه الشروط تدلك على مبلغ ما وصل إليه المماليك من الضعف؛ فإن شروطهم السابقة كانت أن يتولوا حكم الصعيد على دفع الخراج، أمَّا الشروط الأخيرة فأساسها التخلي عن الحكم والإقامة في القاهرة تحت حكم محمد علي.

تمَّ هذا الاتفاق في ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٤هـ (نوفمبر سنة ١٨٠٩م) بأسيوط، وطلب المماليك مهلة ثلاثة يقضون فيها مصالحهم، فقبل محمد علي هذه المهلة، وعاد إلى القاهرة، ولما انقضت المدة طلبوا مدها أشهرًا فرضي بذلك، ولما انتهى الأجل أنذرهم إذا لم يحضروا أن يجرد عليهم الجيش، فأذعنوا وأزمعوا الرحيل إلى العاصمة.

سار إبراهيم بك وزملاؤه إلى القاهرة (مايو سنة ١٨١٠م)، فلما كان قريبًا من الجيزة عسكر بالبر الغربي، ونصب خيامه على رمية المدفع من الجيزة، وهناك ترددت الرسل بين إبراهيم بك ومحمد علي باشا، وكان الباشا مقيمًا وقتئذ بقصره بشبرا، وتعددت مقابلات الرسل على غير طائل؛ إذ إن إبراهيم بك كان قليل الثقة في محمد علي باشا، كما أن محمد علي نفسه لم يكن يبغي من هذه المفاوضات إلا كسب الوقت لتقليم أظافر المماليك وإذلالهم، واستاء إبراهيم بك من المعاملة التي عومل بها؛ إذ لم تضرب لحضوره المدافع كما كان ينتظر، وتركه محمد علي باشا في الجيزة دون أن يكترث

له، فاعتزم العودة إلى الصعيد، ناكثًا الصلح، وبذلك تجدد الخصام بين محمد علي باشا والمماليك.

وقد توصل إبراهيم بك إلى إقناع شاهين بك خليفة الألفي بنقض اتفاقه هو أيضًا مع محمد علي، والرحيل عن القاهرة إلى حيث يتحدوا وإخوانه، فاستجاب له وانسل من الجيزة، وتبعه في انسحابه البكوات والكشاف المماليك الذين لبثوا بمصر سنتين راضين بحكم محمد علي، وعاد الاتحاد إلى صفوف المماليك، فاستاء محمد علي من هذه الحركة، وجرد جيشًا جديدًا لمحاربة خصومه.

تجدد القتال، وزحف الجيش على الصعيد، فانتصر على المماليك في البهنسا واللاهون، واستولى على إقليم الفيوم، وانسحب إبراهيم بك وعثمان بك حسن وسليم بك -زعماء المماليك- إلى أسوان، منهوكة قواهم منحلة عزائمهم، ورجع شاهين بك الألفي يطلب العفو من محمد علي باشا، فعفا عنه وسمح له بالإقامة في القاهرة، وأقطعه دارًا جميلة ليسكن فيها بالأزبكية (أكتوبر سنة ١٨١٠م)، ولعله أراد اجتذابه هذه المرة ليلقى حتفه في مذبحة القلعة كما سيجيء بيانه. وكذلك فعل كثير من البكوات والكشاف والمماليك؛ فإنهم طلبوا من محمد علي الأمان، فأمَّنهم على أنفسهم وعفا عنهم، وأذن لهم بالعودة إلى القاهرة والإقامة فيها.

أخضع محمد علي الصعيد لحكمه، ودانتْ له مصر قاصيها ودانيها، ورجع المماليك الذين قدموا طاعتهم إلى القاهرة، وأخذوا ينصرفون إلى أسباب الرفاهية والرغد، وأغدق عليهم محمد علي من خزانة الحكومة ما جعلهم يستطيبون الإقامة في القاهرة، ويؤثرونها على عيشة الكفاح والقتال، وانصرفوا إلى ترتيب عيشتهم الجديدة، وتجميل بيوتهم وتأثيثها بفاخر الرياش والأثاث، وشرع معظمهم في التزوج وإعداد الأفراح والمسرات، وخيل إليهم أنهم استراحوا من شظف العيش، وأهوال الكر والفر، وأنهم مقبلون على حياة الهناء والرفاء والبنين، ولم يدروا ما خبأ لهم القدر من خاتمة رهيبة.

ذلك أن محمد علي باشا أوجس خيفة من بقاء المماليك في القاهرة، وخاصة لما اعتزم تجريد الحملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لأوامر الأستانة، وخشي إذا غادر الجيش مصر وضعفت قوته الحربية أن يعودوا لمناوأته وانتزاع السلطة من يده، فرأى أن لا وسيلة للاحتفاظ بسلطانه وانفراده بالحكم سوى التخلص من البقية الباقية من المماليك، ومن هنا نبتت في رأسه فكرة اغتيالهم في المؤامرة المعروفة بمذبحة القلعة.

مذبحة القلعة (أول مارس سنة ١٨١١م)

إذا ذهبت يومًا إلى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمباني والآثار، فقف قليلًا تحت منارة جامع السلطان حسن، واتجه بنظرك إلى القلعة، تجدها ماثلة أمامك، بموقعها المنيع، وأسوارها العالية، وأبراجها الشاهقة وأبوابها الضخمة، وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد علي ومآذنه الهيفاء البديعة الصنع التي تداعب السحاب في علوها، فإذا رجعت الطرف في هذا المنظر فدعه جانبًا؛ لأنه لم يكن موجودًا بتمامه في العصر الذي نكتب عنه؛ إذ لم يكن محمد علي باشا قد بنى جامعه إلى هذه السنة (عام ١٨١١م). وانظر أمامك، تجد بابًا ضخمًا غائرًا في الجبل، تعلوه أبراج قديمة، هذا الباب هو المسمى (باب العزب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية، ويقع على الميدان المسمى الآن ميدان (صلاح الدين)، وكان يسمى في ذلك العهد ميدان «الرميلة»، فإذا دخلت هذا الباب تجد طريقًا وعرًا متعرجًا، منحوتًا في الصخر، تسير فيه صعدًا بالجهد والعناء إلى رحبة القلعة، وتصل من هذه إلى جامع محمد علي، ثم إلى قصره.

فإذا تعرفت تلك المواقع، وثبتت صورتها في ذهنك، فاسمع ما جرى فيها يوم (أول مارس سنة ١٨١١م).

لما عاد محمد علي باشا من الوجه القبلي أخذ يجهز جيشًا ينفذه إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين؛ تلبية لنداء الحكومة التركية، وجعل يهيئ معدات الحملة في أوائل سنة

١٨١١م، وعقد لواء قيادتها لابنه أحمد طوسون باشا، وأعد مهرجانًا فخمًا بالقلعة، حدد له يوم الجمعة (أول مارس سنة ١٨١١م) للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة، ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم. وكان الترتيب أن يلبس «طوسون باشا» خلعة القيادة، ثم ينزل من القلعة في أبهته وموكبه مخترقًا أهم شوارع المدينة ليصل إلى معسكر الحملة في القبة[1].

وكان مثل هذا الاحتفال من المواكب المشهودة التي تحتشد لها الجماهير، وقد دعا الباشا جميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك وأتباعهم لحضور الحفلة؛ فعد المماليك هذه الدعوة علامة الرضى من محمد علي باشا، وركبوا جميعًا في زينتهم وكبكبتهم، وارتدوا أجمل وأثمن ما عندهم من الملابس، وامتطوا خير ما لديهم من الجياد، وذهبوا صبيحة ذلك اليوم إلى القلعة قبل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا.

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبرى، فتلقاهم بالبشر والحفاوة، وقدمت لهم القهوة، وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته، وألمح إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في مركبه، فأجابوه بالشكر، واعتذروا عن تخلف بقية إخوانهم الذين ما زالوا في الصعيد ولم يحضروا للاشتراك في الاحتفال، فقابل الباشا الاعتذار بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهة، ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل، فقرعت الطبول وصدحت الموسيقى، فكان ذلك إعلانًا بالتأهب لتحرك الموكب.

وعندئذ نهض المماليك وقوفًا، وبادلوا الباشًا وبادلهم عبارات التحية والاحترام وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم، ولما تقلد الأمير طوسون باشا اللواء بدأ الركب يسير منحدرًا من القلعة.

---

(١) الضاحية المعروفة شمالي العاصمة، وتسمى قبة العزب.

تحرك الركب، تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة يقودها ضابط يدعى أوزون علي، يتبعها والي الشرطة، والأغا (محافظ المدينة) والمحتسب، ويليهم الوجاقلية، ثم كوكبة من الجنود الأرناءود يقودهم صالح أق قوش، ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، ومن بعدهم بقية الجنود الأرناءود فرسانًا ومشاةً، وعلى أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب.

سار الموكب على هذا النظام، منحدرًا إلى باب العزب المتقدم ذكره، متسربًا في ذلك الطريق الضيق الوعر الذي وصفناه آنفًا.

فاجتازت الباب طليعة الموكب، ثم رئيس الشرطة، ثم المحافظ ومن معه، ثم الوجاقلية، ولم يكد هؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتجَّ الباب وأُقفل من الخارج على حين فجأة إقفالًا مُحْكمًا في وجه المماليك، ومن ورائهم الجنود الأرناءود، فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أُقفل -وكانوا عالمين بما تدل عليه هذه الإشارة- تحولوا عن الطريق في صمت وسكون، وتسلقوا الصخور التي تكتنفه وتعلوه يمينًا وشمالًا، وأخذوا مكانهم على الصخور والأسوار والحيطان المشرفة عليه، ولم يتنبه المماليك بادئ الأمر إلى أن الباب قد أقفل، واستمروا يتقدمون متجهين إليه، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلًا في وجوههم إقفالًا مُحكمًا، وأبصروا الأرناءود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم، فتوقفوا قليلًا عن المسير، وتضامَّت صفوفهم المتلاحقة بعضها إثر بعض، ولم تمض هنيهة حتى دوَّى طلق الرصاص من نوافذ إحدى الثكنات، فكان هذا نذيرًا بإنفاذ المؤامرة؛ ذلك أنه لم تكد تلك الطلقات تدوي في الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون في هذا الطريق الغائر في الأرض، فالباب الضخم مقفل في وجوههم، والجنود الأرناءود من ورائهم، ومن فوقهم، وعن يمينهم، وشمالهم، يتناولونهم برصاص بنادقهم.

لم يستطع المماليك دفاعًا عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة، أو الرجوع القهقرى، أو النزول عن جيادهم؛ لضيق المكان الذي حصروا

فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الوقت شيئًا؛ فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصدًا، وجاءهم الموتُ من كل مكان.

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تختبط بدمائها، أمكن للباقين أن يترجلوا عن جيادهم، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التي كانوا مكدسين فيها، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوي والملابس الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل عليهم الفرار، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم في جوف الطريق، ومن هؤلاء شاهين بك الألفي الذي تمكن في عدة من ممالكيه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رحبة القلعة وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين، فعالجه الجنود الأرناءود برصاصة أردته صريعًا، واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دمًا، ووصل إلى سراي الحرم، واستغاث بالنساء صائحًا (في عرض الحرم)، وكانت هذه الكلمة تكفي في ذلك العهد لتجعل من يقولها في مأمن من الهلاك، ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه، وطرحت جثته بعيدًا عن باب السراي، وتمكن بعض المماليك من الوصول إلى حيث كان طوسون باشا راكبًا جواده منتظرًا أن تنتهي تلك المأساة، فتراموا على أقدامه طالبين الأمان؛ ولكنه وقف جامدًا لا يبدي حراكًا، وعاجلهم الجنود بالقتل، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض في ذلك المضيق وعلى جوانبه، حتى بلغ ارتفاع الجثث في بعض الأمكنة إلى أمتار، واستمر القتل إلى أن أفني كل من دخلوا القلعة من المماليك، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أو فرَّ في نواحي القلعة أو تخلف عن الموكب، ساقه الأرناءود حيًّا إلى الكتخدا بك فأجهزوا عليه ضربًا بالسيوف. واستمر القتل من ضحوة النهار إلى هزيع من الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث.

وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم، قتلوا جميعًا، ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (أمين بك)، فإنه كان في مؤخرة الصفوف، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواده إلى المكان المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة، ورأى الموت محيطًا به، فلم يجد منجى إلا أن يرمي نفسه من أعلى السور إلى خارج القلعة، وكان الخطر المحقق في تلك المحاولة، إذ يعلو السور عن الأرض ستين قدمًا، ولكنه خاطر بنفسه مؤثرًا الموت على القتل، فلكز جواده، فقفز به مترديًا، ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلًا، وترك الجواد يتلقى الصدمة، فتهشم الجواد لفوره، ونجا أمين بك من الموت، ومضى يعدو في طريق الصحراء، وما زال يطوي الفدافد متنكرًا حتى بلغ إلى جنوب سورية[1].

أحكم محمد علي باشا تدبير المؤامرة، فلم يقف على سرها إلا أربعة من خاصة رجاله، وهم حسن باشا قائد الجنود الأرناءود، والكتخدا بك محمد لاظ أوغلي، وصالح قوش أحد ضباط الجند، وإبراهيم أغا حارس الباب، وصالح قوش كما مر بك كان يقود كوكبة الجنود الأرناءود في الموكب، وهو الذي أمر بإقفال باب العزب وأعطى إشارة القتل إلى رجاله.

وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد علي باشا جالسًا في قاعة الاستقبال، ومعه أمناؤه الثلاثة، وقد ظل في مكانه هادئًا إلى أن بدأ الموكب يتحرك، واقتربت اللحظة الرهيبة، فساوره القلق والاضطراب، وساد القاعة صمت عميق، إلى أن سمع إطلاق أول رصاصة، وكانت إيذانًا ببدء المذبحة، فوقف محمد علي وامتقع لونه، وعلا وجهه الاصفرار، وتنازعته الانفعالات المختلفة، وأخذ يسمع دوي الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة، وهو صامت لا ينبس بكلمة، إلى أن حصد الموت معظم المماليك، وأخذ صوت الرصاص يتضاءل، وكان ذلك إعلانًا

(١) ذكر المسيو «فولابل» في كتابه «مصر الحديثة» أن هذا المملوك بقي على قيد الحياة حتى ظهور كتابه سنة (١٨٣٢م)، وأنه لجأ إلى الأستانة حيث دخل في خدمة السلطان.

بانتهاء المؤامرة، وعندئذ دخل عليه المسيو «ماندريشي» طبيبه الإيطالي وقال له: «لقد قُضي الأمر، واليوم يوم سعيد لسموكم». فلم يجب محمد علي بشيءٍ، وطلب قدحًا من الماء فشربه جرعة طويلة، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المماليك.

لم يكن أحد من سكان القاهرة يتنبأ قبل أن تقع المذبحة بما خبأه القدر بين أسوار القلعة، فكانت الجماهير يعلوها الابتهاج محتشدة في الشوارع المعدة لسير الموكب تنتظر مروره، ولقد مرت طليعة الموكب بين جموع المتفرجين، وأخذ الناس يترقبون بلهف مرور الصفوف التي تليها، ثم انقطع تلاحق الصفوف، فعجب الناس وطفقوا يتساءلون عن السبب، وذهبت أفكارهم في تفسير ذلك مذاهب شتى، وفيما هم ينتظرون قدوم الصفوف المتأخرة سمع المحتشدون في ميدان الرميلة الذي بأسفل القلعة صوت الرصاص يدوي في الفضاء بعد أن أقفل باب العزب، فسرى الذعر إلى الناس إذ وصل خبر المذبحة إلى الجماهير القريبة من القلعة وصاح صائح: «قتل شاهين بك»، وسرعان ما ذاع الخبر بسرعة البرق إلى مختلف الأنحاء، فتفرقت الجماهير وأقفلت الدكاكين والأسواق، وهرع الناس إلى منازلهم، وخلت الشوارع والطرقات من المارة، وأعقب هذا الذعر نزول جماعات من جنود الأرناءود إلى المدينة يقصدون بيوت المماليك في أنحاء القاهرة، فاقتحموها وأخذوا يفتكون بكل ما يلقونه فيها من أتباعهم، وينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويغتصبون من النساء ما يحملن من الجواهر والحلي والنقود، واقترفوا في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان، ولم يكتفوا بالفتك بمن يلقونه من المماليك ونهب بيوتهم واغتصاب نسائهم؛ بل تجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاروة، وبلغ عدد المنازل التي نهبوها خمسمائة منزل، وأصبح اليوم التالي (السبت) والسلب والنهب والقتل مستمر في المدينة، واضطر محمد علي باشا إلى النزول من القلعة في ضحوة ذلك اليوم وحوله رؤساء جنده وحاشيته لوضع حد للنهب والاعتداء، فمرَّ بالأحياء المهمة التي كانت هدفًا لعدوان الأرناءود، وأمر بقطع رءوس من استمروا في النهب والاعتداء، وكذلك فعل طوسون باشا.

قال الجبرتي: «ولولا نزول الباشا وابنه في صبح ذلك اليوم، لنهب العسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر».

ونبه على الأرناءود بأن يقتصروا على القبض على المماليك الذين بقوا أحياء لتخلفهم عن الذهاب إلى القلعة في اليوم المشهود، وإرسالهم إلى القلعة، فكان الكتخدا بك يأمر بقطع رءوسهم، ولم ينج منهم إلا من هرب من المدينة مختفيًا وهاجر إلى الوجه القبلي، وكذلك صدر محمد علي أمره إلى كشاف المديريات باعتقال كل من يلقونه من المماليك وقتلهم.

بلغ عدد من قتلوا من المماليك في القلعة وفي أنحاء القاهرة والمديريات في تلك الأيام الرهيبة نحو (١٠٠٠) من أمراء وكشاف وأجناد ومماليك.

وقد ذكر الجبرتي أسماء من لهم شهرة ممن قتلوا بالقلعة وبلغه خبرهم، وهم: شاهين بك كبير المماليك الألفية، ويحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، ومراد بك، وعلي بك. وهؤلاء من الأمراء الألفية، ومن غيرهم: أحمد بك الكيلارجي، ويوسف بك أبو دياب، وحسن بك صالح، ومرزوق ابن إبراهيم بك الكبير، وسليمان بك البواب، وتابعه أحمد بك، ورشوان بك، وإبراهيم بك، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير، وسليم بك الدمرجي، ورستم بك الشرقاوي، ومصطفى بك أيوب، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن، وعثمان بك إبراهيم، وذو الفقار تابع جوهر بك، ومن الكشاف (الحكام): علي كاشف الخازندار، وعثمان كاشف الحبشي، ويحيي كاشف، ومرزوق كاشف، وعبد العزيز كاشف، ورشوان كاشف، وسليم الكاشف، وفايد كاشف، وجعفر كاشف، وعثمان كاشف، ومحمد كاشف، وأحمد كاشف الفلاح، وأحمد كاشف صهر محمد أغا، وخليل كاشف، وعلي كاشف قيطاس، وأحمد كاشف، وموسى كاشف.

نفذ القضاء في ذلك اليوم على فئة المماليك، ولم يبق منهم إلا عدد ضئيل ممن بقوا مع إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن اللذين لم يطمئنا من قبل لمصالحة محمد علي

باشا، وبقيا في الصعيد ومعهما ذلك الرهط من المماليك، فلما بلغهم نبأ مذبحة القلعة مضوا جنوبًا إلى ما وراء أسوان وأوغلوا في إقليم النوبة ودنقلة، ونجا أيضًا من القتل عدا هؤلاء نحو ستين مملوكًا فروا إلى سورية.

الرأي في مذبحة القلعة

تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك؛ فإنا عددنا عليهم من المساوئ التي ارتكبوها والمضار التي جلبوها على البلاد ما يُغْني عن البيان؛ ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانيةُ. ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرًا له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر، وأن هذه المؤامرة هي صورة مكبرة لما أمر به الباب العالي سنة (١٨٠٤م) من الفتك بالمماليك؛ إذ عهد إلى الصدر الأعظم وإلى حسين قبطان باشا أن يقضي عليهم بهذه الطريقة نفسها[1]، فإن تكرار السيئات لا يبررها. وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ محمد علي باشا.

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم: إنه اضطر إليها دفاعًا عن نفسه، وأن المماليك كانوا يأتمرون به حين ذهب إلى السويس يتعهد شئون العمارة المعدة لنقل الحملة الوهابية، ونمى إليه أنهم ينوون الفتك به عند عودته إلى القاهرة (فبراير سنة ١٨١١م) فخرج من السويس ليلًا على غير ميعاد، وأسرع في السير حتى دخل القاهرة، ولما تحقق أنه لا يأمن فتك المماليك به -وخاصة إذا أنفذ الحملة على الحجاز وخلت البلاد من الجنود- اعتزم قطع دابرهم.

(١) انظر: الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية» ص٣١٥ وما بعدها، الطبعة الأولى.

وهذه الرواية لم نجد لها سندًا قويًّا، ولا نعتقد أن هذا الحادث هو الذي أوحى إلى محمد علي تدبير مذبحة القلعة؛ بل أغلب الظن أنها كانت نتيجة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على ذلك الحادث، وكان قبله بمدة.

ولم تلق مذبحة المماليك تبريرًا قويًّا حتى من أصدقاء محمد علي المدافعين عنه وعن حكمه، فانظر مثلًا إلى ما كتبه المسيو «مانجان» -وهو صديق للباشا- تراه يقول:

«إنني أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك؛ على أنني أعده من بعض النواحي خيرًا لمصر؛ فإن بقاءهم يفضي إلى حرب هي أضر على البلاد من الإيقاع بهم، كما أن إرادة الباب العالي كانت تؤدي إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التي ضربها محمد علي تنفيذًا لأوامر الباب العالي السرية قد قضت على نظام كانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجًا، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا. ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضي أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطًا بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطرًّا إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر في إضعاف خصومه الذين يزدادون في هذه الحالة قوة ونفوذًا، فقد بلغه -على ما قيل- أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس». ولما علم أن السياح من الإفرنج يلومونه في رحلاتهم وكتبهم على اغتيال المماليك ويعدونه عملًا منافيًا للإنسانية، صرح بأنه يبغي أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب حادثة اغتيال الدوق «دانجان»[1] DEngein ليحكم الناس على الحادثتين.

ويقول المسيو «جومار» -وهو الذي جعله محمد علي باشا مديرًا لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا-:

«لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر، لما صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية».

(١) الذي اتهمه نابليون ظلمًا بالتآمر عليه، وأمر بقتله في محاكمة صورية.

هذا، وإذا نظرنا إلى هذه الحادثة من الوجهة القومية البحتة، وجدنا أن البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم وتقلمت أظفارهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد علي وسلطانه، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم؟

وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم، وقد تركوا إخوانهم في الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش؟ ما نظن مطلقًا أن ثمة خطرًا كان يتهدد محمد علي من هذه الناحية، وما نظنه كان في حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر.

ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية؛ لان مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكنًا إلى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهي قوام الأخلاق والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرًا بانحلال الحياة القومية وفسادها، فالرهبة التي استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها في إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية، وتلك خسارة قومية كبرى؛ فإنما الأمم أخلاق وفضائل.

أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية، وتعددت مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح إلى زمن طويل، وأحلت في مكانها روح الرهبة من الحكام. ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد علي باشا أكثر اطمئنانًا

على انفراده بالحكم، فلم يبد من الشعب في خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح ومعارضة أو محاسبة أو انتقاد. وغنيٌّ عن البيان أنه مع ما أسداه محمد علي من الخير للبلاد في خلال حكمه، فإنه لم يعوض على الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية؛ ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية.

obeikan.com